

## تاريخ تطور الفكر العربي

بالترجمة والنقل عن الثقافة اليونانية

(١)

للعقل الانساني منازع قد تسوق الى نواح من التأمل بعيدة كل البعد عن المنزع الحقيقي الذي كان سبباً في تحريك الفكر نحو النظر في العقوليات : فاذا نظرت في الخلافات التي وقعت بين النصارى لدى أول عهدهم لما استطاعت ان تدرك بادى ذي بدء الى اي حد سوف يذهب خلافهم

كان الخلاف على طيعة المسيح عليه السلام ، مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنسية في القرون الاولى . وكان لاختلاف المذاهب في تلك المسألة اكبر اثر في النظر في العقوليات ، وفي التأمل الفلسفي

اشهرت انطاكية بانها من أولى مدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها باول حركة من تلك الحركات الفكرية التي كانت ذات أثر كبير في شيوع الفاسفة ، وفروع الفلسفة اليونانية خاصة. قام بالحركة في انطاكية معلمان يقال لاحدهما «ديودوروس» والآخر «تيودوروس النصي» كانا شديدي الاعتقاد في كمال الناسوتية في المسيح عليه السلام وكان اكبر المؤيدين لهذا المذهب راهب من رهبان انطاكية يقال له «سطوروريوس» انتقل الى القسطنطينية استقفاً لها في سنة ٤٢٨ ميلادية . ونجح تأييد سطوروريوس لهذه الفكرة مناقشات حادة ، حتى انتهى الامر بعقد مجلس ديني في مدينة « انوس » سنة ٤٣١ م . فانتصر حزب الاسكندرية ، وهو الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطوري ، واعتبر سطوروريوس واتباعه هرطقة

كان الناطرة على اعتقاد كامل في ان نظراهم بعيدون عن حكم العقل والضرورات الطبيعية. لذلك سموا ببد مضي عامين على حكم مجلس انوس الى جمع شملهم ، وعلى الرغم من مطاردتهم والاستبداد بهم نزلوا مصر وانحدروها مقرآلث تعاليمهم قبيل ذلك اغلقت مدرسة نصيين او بالاحرى انتقلت الى الرها . وفي سنة ٣٦٣ سلمت مدينة « نصيين » الى الفرس تنفيذاً للمعاهدة التي عقبها الحرب التي اشعل نارها الامبراطور يوليانوس وكان اعضاء مدرستها متناثرين في الممالك المسيحية

اذ ذاك ، فعادوا الى التجمع في الرها وفتحوا مدرسة سنة ٣٧٣ م . وبذلك أصبحت تلك المدينة ، ولو أنها في ارض تابعة للإمبراطورية البيزنطية ، مركزاً للكنيسة التي ينطق زعمائها باللسان السرياني

أصبحت مدرسة الرها بعد ذلك موطناً لرجال من زعماء النساطرة الذين لم يقبلوا حكم بحاس افسوس . غير ان الامبراطور زينون اغلق تلك المدرسة سنة ٤٣٩ م . بحجة ان صفتها نسطورية متطرفة . فلم يجد اهلها من موئل سوى الهجرة الى البلاد الفارسية ، فهاجروا تحت رئاسة كبيرهم « بارسوما » سنة ٤٥٧ م

تبع بارسوما في اقناع فيروز ملك الفرس بأن النساطرة بوالول ابناء فارس ومحضون خاضعين لقوانينهم ، وظلوا على عهدهم هذا في كل الحروب التي وقعت من بعد ذلك . ثم اسس النساطرة مدرسة اخرى في نصيبين ، فاصبحت منارة تشع منها التعاليم النسطورية ، تلك التعاليم التي كونت وجهاً من اوجه المسيحية مصوغاً بالصيغة الشرقية البهجة . ومن ثم انتشر النساطرة في جوف آسيا ، وبلاد العرب ، ينشرون التعاليم المسيحية . ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحية فقط ، بل أرادوا ان ينشروا معها آمالهم الخاصة في طبيعة المسيح . فآخذوا يستعينون على بث افكارهم باقوال ومذاهب متزعة من الفلسفة اليونانية . فاصبح كل مبشر لسطوري بالضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية ، كما انه مبشر بالدين المسيحي

ترجم النساطرة كتب زعمائهم وعلى الاخص كتب تيودورس المصيبي الى السريانية يستعينوا بها على بث افكارهم . ولكنهم لم يقتصرُوا على ذلك بل ترجموا كثيراً من كتب ارسطوطاليس والذين تعلقوا عليها ، لانهم وجدوا فيها اكبر نصير يشد عضدهم في فهم المسائل اللاهوتية المربكة التي كانوا يبشرون بها بين امم لم تشم من ربح المدنية الا قدرأ يجعل نشر مثل تلك التعاليم مثمراً ، ما لم يستعن عليها بمبادئ من الفلسفة وما بحث في التأمل

غير ان كثيراً من تلك التراجم قد صب في قالب لم براع فيه نقل الفلسفة اليونانية لذاتها ، بل اتخذت انتراجم ذريعة لبث مذهب ديني ، هو مذهب النساطرة ، والظن في قياصرة الروم والكنيسة الرومانية ، فقلبت الثقة بالنقل من هذه الوجهة وحدها ، حيث كانت الضرورة تقضي بان يختلط قليل من الفلسفة بكثير من تعاليم المذهب النسطوري او بالعكس ، للاستعانة بذلك على بث المذهب الديني ، وهو الغرض اثيريحي

تلك كانت النواة التي اشتمت بالفلسفة اليونانية ، وعلى الاخص بفلسفة  
ارسطوطاليس والافلاطونية الجديدة في جو آسيا خارج حدود الامبراطورية  
البيزنطية . وسوف نرى في سياق هذا البحث كيف ان جماعة من مترجمي النساطرة  
هم الذين كانوا اول من نقل تلك الفلسفة من السريانية الى اللغة العربية . وبذلك  
انتشرت في العالم العربي كنه

غير انك نجد رغم هذا ان في الحركة النسطورية أوجهاً من النقص شأن كل  
شيء يصدر عن الانسان . فان ابتداء صلاتها بالعالم اليوناني خارج الامبراطورية  
البيزنطية ، قد جعل حركتها التعليمية مصبوغة بصبغة الانحياز في قيمة محدودة من آسيا  
أما « نسطوريوس » فانه ان كان قد اتهم امام الكنيسة وصادر حكم بجمع افسوس  
عليه ، فانه قد ترك الكنيسة امام مشكلة من مشاكلها العظمى ، التي ظلت تعمل  
في رؤوس الناس زماناً ، حتى انتهت المناقشات الشيعية بجمع آخر عقد سنة ٤٤٨ م .  
مدينة خلفيدونية كانت نتيجة ان اخرجت فئة اخرى من الكنيسة الرئيسية هم فئة  
المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح

وفي اواسط القرن السادس قام يعقوب السروجي وانشأ شعبة اليعاقبة المنسوبة  
اليه فاضطهدتها امبراطورية بيزنطية . ولكن اعضاءها لم يخرجوا عن حدود  
الامبراطورية ، بل ظلوا داخلها كقسم مستقل بصورة خاصة من اصحاب الطبيعة  
الواحدة . وارسلوا طائفة منهم خارج الامبراطورية تبث تعاليمهم . على أنس  
هؤلاء قد اتبعوا نفس الطريقة التي اتبعها النساطرة في ترك لغة نظرائهم في الدين ،  
فعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية . والحق أن عصر اللغة السريانية  
الذهبي لا يبدأ الا برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية الى اللغة السريانية

والظاهر لسلك من درس علم اللغات أن هنالك فاصلاً حقيقياً بين اللغة السريانية  
كما استعمالها اليعاقبة في الغرب ، والنساطرة في الشرق . فان اليعاقبة اهتموا لهجات  
حديثة ، ينبغ أن يكون لسبب فيها راجعاً الى طبيعة استيطانهم وتوزعهم الجغرافي  
اذا اعتبرنا النتائج التي حدثت من خروج النساطرة واليعاقبة ، استطنا ان نفهم  
لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونان الى اللغة السريانية . بينما نجد أنس الحركة  
النيسطورية كانت السبب الاول في أن اللغة السريانية قد اصبحت بالترجم الواسط  
الذي تركت فيه غار التثقيف اليوناني وانتشرت في آسيا خارج حدود الامبراطورية

العرب بتقديمهم في مفاوز الوعرة ، وظلوا عليه عاكفين حتى آخر عصور مدينتهم . ذلك لان نجم الاسكندرية في العلم قد اطفأ اوار السريانية . وأخص ما يأخذ بلب الناس في مثل تلك الحالات خداع الشهرة وبعد الصيت . لهذا اكب العرب تحت تأثير تلك العوامل على نواتج العقل في الاسكندرية دون ما تضمنت الميريانية من مباحث العلم والفلسفة في وسط تلك الصورة الذهنية نبتت مؤلفات بولس الاجانطي الذي مر بنا ذكره . وقد ظلت مؤلفاته في الطب طوال العصر العربي والمصر اللاتيني في القرون الوسطى ، مادة التعاليم الطبية

كذلك كانت الاسكندرية منبأ لعلم الكيمياء . ففيها تكونت النواة الاولى التي استمد العرب منها سواء في هذا العلم ، أم فيما تفرع منه من الفنون الاخرى ، التي كثيراً ما امتزجت بالخيالات والاهام . وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير المسيو « برتيلو » Berthelot في كتابه « الكيمياء في القرون الوسطى » الذي طبع بباريس سنة ١٨٩٣ « إن المادة العربية في الكيمياء تنقسم الى قسمين : الاول مترجم او مأخوذ عن الكتاب اليونانيين الذين كتبوا في مدرسة الاسكندرية : والثاني يمثل مدرسة عربية مستقلة المباحث عن الاولى »

وبينما كانت مدرسة الاسكندرية فارقة في المباحث الطبية ، كانت كائنات آسيا وادبرتها ومدارسها ، ممتعة في المباحث المنطقية والفلسفة التأملية . كان من الطبيعي ان يأخذ اليعاقبة عن تعليقات « يوحنا فيلوبونس » في تدريس علم المنطق ، اعلاقتهم بمصر . غير انهم لم يفعلوا ذلك . بل رجعوا والناطرة الى مختصر « فرفوريوس الصوري » في المنطق المسمى « ايساغوجي » وأخذوه كمدخل الى علم المنطق . ولا يزال هذا الكتاب يقرأ في الازهر حتى اليوم كمدخل لتلك العلم اما في الميادين بقا — ( ما وراء الطبيعة ) — والبيكولوجيا — ( علم النفس ) — وتطبيقهما على اللاهوت ، أو في الاستعانة بهما على فهم المسائل اللاهوتية ، فقد كان ميل اليعاقبة الى الافلاطونية الجديدة والباطنية اقوى من ميل الناطرة ، كما كانت حياتهم وتعاليمهم اكثر استكانة في الأدبرة ، في حين انك تجد ان النساطرة قد زرعوا الى الطريقة القديعة في تأسيس المدارس ولو ان ذلك لم يحل دون اتخاذهم ادبرة ، كانت منبعاً للعالم وللغلسفة . وأذ انت على ذلك اذا بك تجد ان نظام المدارس قد انقلب في آخر الامر الى نظام ازهنية

كانت مدرسة نصيبين اقدم مدارس المناظرة واعظمتها جميعاً.. غير ان « مار أبه » Mar Abba وهو زرادشتي تنصّر وحسب اسقفاً لطوروسيا ، اسس مدرسة في سلوقية على نظام مدرسة نصيبين

وبعد ذلك بقليل اسس « كسرى انوشروان » ملك الفرس المشهور مدرسة زرادشتية في « حنديسابور » من أعمال « خوزستان » . حكم انشروان بين سنة ٥٣١ — ٥٧٨ من الميلاد . وكان قد تأثر بتعاليم اليونان ، حينما كان يحارب سورية البيزنطية ، فاضاف جمعاً من الفلاسفة اليونانيين والفلاسفة العارفين بالفلسفة اليونانية ، عندما اغلق الامبراطور « يوستينيانوس » الهياكل والمدارس في آثينا

وكان الذين وفدوا على انوشروان من الفلاسفة سبعة ، فاكرم وفادتهم واطابهم وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقلها الى الفارسية ، فنقلوا المنطق والطب والقوا فيها كتباً فطالها هو ورغب الناس فيها ( راجع الفهرست ص ٢٤٢ ) على ان في رواية صاحب الفهرست شكاً كبيراً . اذ كيف ينقل الفلاسفة اليونان الوثنيون الذين لا احتكاك لهم بالفارسية ، وعلى الاخص الفهلوية ، كتب المنطق والطب الى لغة فارس ، في حين ان الراجح ان لا يكون لهم الملم الا بلغتهم اليونانية القديمة ؟ يبقى ذلك الشك ما لم يثبت ان الفلاسفة اليونان كان لهم سابقة في دراسة الفارسية في عصر متقدم على عصر انوشروان

ويقول بعض المؤلفين ان انوشروان عقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون من بعده بقرنين وتيف حتى « خيل للاغريق الذين جالوه انه من تلاميذ افلاطون » . اما عقد انوشروان مجالس العلم فذلك محتمل ، لان اخباره مع وفود العرب وعقد المجالس لهم مشرقة مشهور امرها بين الادباء . اما بقية الرواية فأمر معكوك فيه ، لان عهد انوشروان بفلسفة اليونان كان قصيراً الى حد لا يقبل ان يبرز فيه انوشروان في الفلسفة الى هذا المدى القصير . وبما يجعل الرواية أدخل في الشك ان افلاطون علم في القرن الرابع قبل الميلاد ولم يقصد انوشروان مجالس الفلسفة الا في القرن السادس بعد الميلاد ، فكيف يحيل الى الفلاسفة اليونان الذي حضروا مجلسه انه تلميذ من تلاميذ افلاطون ، في حين ان تلاميذ افلاطون كان قد اكلمهم البلى من قبل ذلك بالف عام ؟

وبما يدلك على اهتمام انوشروان باولئك السبعة الذين وفدوا عليه من فلاسفة

اليونان، أنه وضع في المعاهدة التي عقدها الإمبراطورية البيزنطية، نصاً خاصاً بهم ضمن لهم به حريتهم المدنية والدينية، وعدم الاستبداد بهم فيما لو أرادوا العودة إلى وطنهم كان هؤلاء الفلاسفة من الأخذ بتعاليم «الافلاطونية الجديدة». على أن ازدهارهم في الحياة الفارسية غير معروف بالضبط. قال أي حد تذهب هذه التعاليم في التأثير على صور التصوف التي ظهرت في فارس فيما بعد ذلك ما أخذت المباحث الجديدة تجلو عنه الاستاذ فقد كتب الأستاذ «نكلسن» في كتابه «أشعار منتخبة من الديوان» طبع كهدج (١٨٩٨) شيئاً يكشف عن تلك الآصرة التي تربط بين «الافلاطونية الجديدة» والباطنية كما أخذها في فارس

وعقب عليه الأستاذ «ديلاس أوليري» قدج في مؤلفه الذي طبع في نيويورك ١٩٢٢ عن الفكر العربي فصلاً عن الصوفية هو الفصل السابع من ذلك الكتاب (من ١٨١ — ٢٠٧) أوضح فيه أواصر العلاقة بين الباطنية المشوثة في تعاليم «الافلاطونية الجديدة» وبين الباطنية الفارسية في العصر الوثني، وما كان من أثرها فيما بعد على صور التصوف التي احتضنت بها فارس وأبناء العرب بعد الإسلام وكان أساس التحليم في مدرسة «جنديسابور» غير مقصور على المؤلفات اليونانية والسريانية، بل أضيف إلى ذلك تعاليم من فلسفة الهند وآدابها وعلومها، ترجمت إلى اللغة الفهلوية وهي اللغة الفارسية القديمة. وهناك تمت علوم الطب حين تخلصت من جو الضيق والاستبداد الذي حوطتها بها التعاليم اللاهوتية. ومن غريب الأمر أن يكون من أشهر الذين علموا الطب في ثوبه الجنديسابوري الحديث فئة من أشهر الساطرة المسيحيين

ومن الذين اشتهروا من العرب قبل الإسلام في مدرسة «جنديسابور» — «الحارث بن عاصم» الذي اشتهر من بعد كطبيب، وابنه «الخبز» الذي ذكره من بعد الرئيس بن سينا كأحد أعيان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وكان من بين الذين هزموا في وقعة «بدر» وقتله علي بن أبي طالب. وعن ذكر الرازي من أعلام تلك المدرسة من أبناء الهند شركة Sharak «وقلهومن» Qolhoman ومنهم هندي يقال له «شاهنشا» كتب رسالة في السموم ترجمها من بعد أحد التراجمه ليحيى بن خالد البرمكي إلى الفارسية، ثم ترجمت إلى العربية للخليفة المأمون ورجعت في عصر هرودت إرشيد بواسطة طبيبيه الخاص. بضعة كتب عن

الفكرية إلى العربية في علم الطب ، حتى أنه من المتعذر ان تعرف اصل التعاليم الشائعة في الطب العربي إن كانت مستمدة من اليونان أم من الهند أم هي مبتكرة الا بعد طول المزاولة والصبر على تفهم حقيقتها وطبيعتها ومقارنتها بما يتنازع الآراء المستمدة من كل من تلك النواحي

وفضلاً عن المدرستين المسيحية والزرادشتية ، فقد وجدت مدرسة وثنية في « حران » ولا يعلم كيف نشأت وكيف تطورت ! ولا من وضعها وأقام اسمها ؟ وكانت « حران » مركزاً للتأثير اليوناني منذ عصر الإسكندر المقدوني الأكبر ، وظلت موثلاً لتعاليم الديانة اليونانية القديمة ، بعد ان انقلب العالم اليوناني الوثني إلى عالم نصراني . والظاهر أن « حران » قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة البابلية القديمة التي كانت قد انتشرت في القرون الأولى من انتشار الديانة المسيحية ، إلا أن صورتلك الديانة القديمة قد ذهبت بها تطورات الديانة الوثنية اليونانية كما فهمتها « الافلاطونية الجديدة » وكما وضعها زعماء تلك الفلسفة في مدينة الاسكندرية . ولا مشاحة في ان حالات الفكر في « حران » تمثل آخر أذوار الوثنية اليونانية والافلاطونية الجديدة كما وصفها « فرتر يوس السوري » حيث ظلت عائشتين عمدين بكل اسباب الحياة ، عيشة بعيدة عن معترك العالم الخارج عن حيزها

على الرغم من انتشار المدارس التي علمت على النسق اليوناني وأذاعت مواد الثقافة اليونانية فقد اقترنت تعاليم الكثير من المؤثرات الأخرى التي لا يمكن التورخ في تاريخ الفكر ان يفضل امرها . فان الجنود الفارسية عندما رجعت من غزو سورية نقلت معها كثيراً من آثار الفكر اليوناني وطائفة من مظاهر الرفاهية اليونانية . وكذلك طبعت نفوس أبناء فارس بعد تلك الغزوة بطابع من الإعجاب بالثقافة اليونانية وهندسة البناء اليونانية . وكان المهندسون والبنائون اليونان الذين أسروا في الحرب يعتبرون آمن ما رجع به الجيش الغازي من المنافع ، حتى ان بلاد فارس بدأت بعد تلك الغزوة تدخل نسق البناء اليوناني فيما تشيد من المباني

إذن فتاريخ القرون التي تقدمت انتشار الاسلام تدل على ذبوع قط عظيم من التأثير اليوناني في كثير من فروع الفن والعلم والفلسفة والهندسة والبناء ، وفي زخارف الحياة ذاتها . ومن قبل ذلك منذ عهد الاسكندر المقدوني ، كان غربي آسيا لا يتفلسف إلا في جو مغمم بأثار الفكر اليوناني